آثار أُحُد

شمت اليهود والمنافقون بالمسلمين بعد هزيمتهم فى أحد وملئوا المدينة بالأراجيف

كان من الطبيعى أن يحزن المسلمون لما أصابهم فى أحد، وأن يملأهم الندم على ما كان منهم، مما كان سبباً فيما حل بهم من هزيمة، وفيما أصاب شهداءهم من قتل ومُثْلَة، وفيما أصاب رسول الله ﷺ من جراحات وغم. وكان من الطبيعى أن يشمت بالمسلمين أعداؤهم فى المدينة وفيما حولها، وأن تمتلئ بالفرح قلوبهم وهم يرون المسلمين يدخلون المدينة واهنين مكدودين، يسودهم الفتور والصمت وتغشاهم الكآبة والوجوم، ويملؤهم الغيظ والغم من سوء ما صنعوا بأنفسهم.

ولم يشأ اليهود والمنافقون أن يخفوا شماتتهم وفرحهم فيما أصاب المسلمين، فجعلوا يعالنون بها ويجاهرون؛ بل انتهزوها فرصة سانحة للنيل من الإسلام وأهله، فأطلقوا ألسنتهم بالسوء فى رسول الله وفى دعوته وفى أصحابه.. فأخذ اليهود يشككون

فى رسول الله وفى دعوته قائلين : «لو كان نبيًّا ما ظهروا عليه ولا أصيب منه ما أصيب، ولكنه طالبُ مُلْك تكون الدولة له وعليه». وجدَّ المنافقون فى التفريق عن رسول الله ﷺ، وفى تحزين المسلمين على من مات من شهدائهم؛ وبالغوا فى اللوم والنكير عليهم، متظاهرين بأنهم كانوا أحزم وأحكم حين رجعوا من الطريق ولم يحضروا القتال، وأن المسلمين لو أطاعوهم فرجعوا كما رجعوا ما أصابهم الذى أصابهم.. ﴿الذين قالوا لإخْوانهم - وقَعَدُوا - لو أطاعُونا ماقُتِلوا قل فادرءوا عن أنفسكم الموتَ إنْ كنْتُم صادقين﴾[1].

وأكثَر اليهودُ والمنافقون القول فى رسول الله صلى الله عليه وسلم وفى المسلمين، حتى فارت المدينة بالأراجيف فَوْرَ المِرْجَل، وحتى أوشك الأمر أن يكون فتنة؛ فخشى رسول الله على المسلمين أن يتملكهم الوهن والضعف، وأن تعمل أراجيف المرجفين عملها فى نفوسهم، فتتزعزع مكانة الإسلام فى المدينة وفيما حولها؛ كما خشى أن يدفع الطمع قريشاً إلى الكرة عليهم وهم فى هذه الحال من الزَّعزعَة والاضطراب، ومن قلة الناصرين من الأولياء وكثرة المتربصين من الأعداء.

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٦٨.

كان لابد من عمل سريع يعيد إلى المسلمين ثقتهم بأنفسهم ويسترد هيبتهم فى نفوس أعدائهم فكانت غزوة حمراء الأسد

ورأى صلى الله عليه وسلم أنه لابد من عمل سريع يزيل أثر الوهن من قلوب أصحابه، ومن علاج حاسم حازم يعيد إلى المسلمين ثقتهم بأنفسهم، ويستردون ما فقدوا من الهيبة فى نفوس أعدائهم؛ فعزم على أن يخرج بأصحابه فى إثْر قريش على رغم ما أصابهم من القَرْح، وما كان بهم من الإعياء والجهد.

وكان صلى الله عليه وسلم يرمى بذلك إلى غرضين: أن يقطع الطريق على المُرْجِفين، فلا يدع فرصة لأراجيفهم حتى تعمل عملها فى نفوس أصحابه، وأن يُشعر قريشاً ومن والاها أن المسلمين لم يضعفوا، وأنهم - على رغم ما أصابهم - لا تزال بهم قوة يستطيعون بها أن يُرهبوا عدو الله وعدوَّهم.

قال ابن إسحاق: «فلما كان من الغد: من يوم الأحد لستٍّ عشرةَ ليلةً من شوال، أذّن مؤذِّن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الناس بطلب العدو، فأذن مؤذنه «ألَّا يخرجن معنا أحدٌ إلا أحدٌ حضر يومَنا بالأمس». فكلمه جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام فقال: «يا رسول الله، إن أبى كان خلَّفنى على أخوات لى سبع وقال: يا بنى، إنه لا ينبغى

لى ولا لك أن نترك هؤلاء النسوة لا رجل فيهن، ولست بالذى يؤثرك بالجهاد مع رسول الله على نفسى، فتخلف على إخوتك. فتخلَّفت عليهن». فأذِن له رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فخرج معه.. وإنما خرج رسول الله مُرهباً للعدو، وليُبْلِغَهم أنه خرج فى طلبهم ليظنوا به قوة، وأن الذى أصابهم لم يُوهِنهم عن عدوهم».

فلما أذَّن مؤذن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، جعل الناس يسارعون إلى أسلحتهم فيلبسونها، ثم يتوافدون على المسجد فيجتمعون فيه؛ لا يتخلف عن ذلك جريح ولا صحيح. ومع أن الجراح كانت فى الناس فاشية والناس مشغولون كلٌّ بمداواة جراحه، فإن النداء شغلهم عن أنفسهم؛ فما منهم من أحد إلا نسى جراحه ودواءه، وأسرع إلى لأمتَه فلبسها، ولحق برسول الله، صلى الله عليه وسلم، حتى لقد جعل الضعفاء يتحاملون على أنفسهم ويحملونها ما لا تُطيق. فقد روى أنه: كان عبد الله ورافع ابنا سهم الأنصاريان قد رجعا من أحد وبهما جراح كثيرة، فخرجا يزحفان ليلحقا برسول الله، صلى الله عليه وسلم. وكان رافع أكثرهما جراحاً، فضعف عن السير، فجعل أخوه عبد الله يحمله على ظهره عُقْبَةً[1] حتى

(١) عقبة: مسافة من الطريق.

يستريح، ثم يتركه يمشى عقبة؛ وما زالا كذلك حتى أتيا رسول الله، صلى الله عليه وسلم. فلما رآهما رسول الله دعا لهما بخير وقال: «إن طالت بكم مدة كانت لكم مراكب من خيل وبغال وإبل؛ وليس ذلك بخير لكم».

واستأذن فى الخروج رجال لم يحضروا القتال، فأبى عليهم ذلك رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فلم يخرج معه أحد لم يشهد القتال إلا جابر بن عبد الله رضى الله عنه، لما رأى من بالغ عذره وصادق نيته.

* * *

ولما اجتمع الناس ركع رسول الله ﷺ ركعتين فى المسجد، ثم دعا بفرسه فركبه وعليه الدرع والمِغْفَر[1]، ودعا بلوائه - وكان معقودًا لم يُحَلّ منذ الأمس - فدفعه إلى على بن أبى طالب، وقيل إلى أبى بكر، واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم، وأقام على حرسه عبَّاد بن بشر. ثم مضى صلى الله عليه وسلم فى أصحابه، حتى عسكروا بحمراء الأسد، على ثمانية أميال من المدينة، فأقام بها الاثنين والثلاثاء والأربعاء.

وكان صلى الله عليه وسلم يأمر أصحابه فى النهار بجمع

(١) الدرع يلبس على الجسم، والمغفر يلبس على الرأس، وكلاهما يصنع من زرد الحديد.

الحطب، فإذا جاء الليل أمر أن يوقد كل رجل منهم نارًا؛ فكانت النيران تُرَى من البعد البعيد وقد ملأت الأرجاء بأضوائها، وخدعت العدو بلألائها، حتى خيل للناس أن المسلمين ألوف مؤلفة، وأعداد لا تحصى ولا تعد، «فذهب ذكر معسكرهم ونيرانهم فى كل وجه، فكان ذلك مما كبت الله به عدوهم»[1].

ساهمت خزاعة مساهمة كريمة فى تخذيل قريش

وكان مما قيَّض الله للمسلمين أن قبيلة «خزاعة» كانت مسالمة للنبى ﷺ ومناصحة له؛ فمر به معبد الخزاعى فقال: «يا محمد، لقد عز علينا ما أصابك فى نفسك وفى أصحابك؛ ولَوَدِدْنا أن الله أعلى كعبك، وأن المصيبة كانت بغيرك»! ثم مضى حتى لقى أبا سفيان وقريشًا «بالروْحاء»[2]، وقد ندموا على أنهم لم يستأصلوا محمدًا وأصحابه، وجعلوا يتلاومون ويقول بعضهم لبعض: «لم تصنعوا شيئًا.. أصبتم شوكة القوم ثم تركتموهم ولم تَبْتروهم، وقد بقيت منهم رءوسٌ يجمعون لكم.. فلا محمدًا أصبتم، ولا الكواعب أرْدَفتم[3]؛ فبئس ماصنعتم»..!

---

(١) ابن أسحاق.

(٢) الروحاء: موضع بين مكة والمدينة، على نحو ستة وثلاثين ميلا من المدينة.

(٣) أى: أنكم لم تأسروا أحدًا من النساء. كما هو الشأن فى المواقع التى يهزم فيها الرجال.

وأجمعوا أمرهم على الرجوع ليستأصلوا بقية القوم.

قال ابن إسحاق: «فلما رأى أبو سفيان معبدًا قال: ما وراءك يا معبد؟ قال: محمد قد خرج فى أصحابه يطلبكم فى جمع لم أر مثله قط، يتحرقون عليكم تحرقًا.. قد اجتمع معه من كان تخلف عنه فى يومكم، وندموا على ما صنعوا.. فيهم من الحنَق عليكم شيء لم أر مثله قط..! قال: ويحك، ما تقول؟ قال: والله ما أرى أن ترتحل حتى ترى نواصى الخيل[1]. قال: فوالله لقد أجمعنا الكرة عليهم لنستأصل بقيتهم. قال: فإننى أنهاك عن ذلك... فثنى ذلك أبا سفيان ومن معه».

وأراد أبو سفيان أن يُرهب المسلمين ويَثنيهم عن ملاحقته، فانتهز فرصة رَكْب من التجار مروا به قاصدين إلى المدينة، فأوعز إليهم أن يردوا عنه محمدًا، ويخوفوه كرّة قريش عليه وعلى أصحابه لتستأصلهم، ووعدهم أجرًا على ذلك. فلما مر هؤلاء الركب برسول الله ﷺ وهو بحمراء الأسد، أخبروه بما قال لهم أبو سفيان، فلم يأبه رسول الله بذلك، وقال: «حسبنا الله ونعم الوكيل»! وظل هو وأصحابه فى معسكرهم ثلاث ليال،

(١) يعنى: أنهم يوشكون أن يدركوكم.

حتى علموا أن قريشًا قد انصرفت إلى مكة، فعادوا إلى المدينة ليدخلوها مرة أخرى أرفعَ رءوسًا وأعز جانبًا.

وعثر رسول الله ﷺ فى أثناء رجوعه بأبى عزة الجُمَحى - ذلك الشاعر الذى نقض عهده مع رسول الله فذهب يؤلب عليه مع الذاهبين - فقال: يا رسول الله، أَقِلْنى[1]. فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «والله لا تمسح عارضَيْك[2] بمكة بعدها وتقول: خدعت محمدًا مرتين! لا يُلْدَغ المؤمن من جحر مرتين». ثم أمر بضرب عنقه، فقتل.

تألبت أكثر القبائل على المسلمين فأخذ النبى يباغتهم بغزوات مفاجئة

على أن ذلك كله لم يمح آثار الهزيمة فى أحد؛ فقد تألبت أكثر القبائل على المسلمين، وظن البدو الذين كانوا يحيطون بالمدينة أنهم قادرون على أن يغيروا على المدينة فينتهبوها، وخيل إليهم أن المسلمين قد أصبحوا بحيث لا يقدرون على دفع غاراتهم.. وكان أول من تهيأ لذلك بنو أسد. فلما علم رسول الله ﷺ بما يعتزمونه من غزو المدينة، بادرهم بالغزو قبل أن

---

(١) أقلنى: اعف عنى.

(٢) يعنى: أنه يزهو ويفتخر بأنه خدعه.

يستعدوا؛ فأرسل إليهم أبا سلمة فى مائة وخمسين من أصحابه، فباغتوهم فى ديارهم، وشتتوا جموعهم، واستاقوا أمامهم ما ظفروا به من أنعامهم، ثم عادوا إلى المدينة غانمين، لم يُكْلَم أحد منهم كَلْمًا. إلا أن أبا سلمة نَغَر[1] عليه جُرحه الذى أصابه فى أحد، فلم يلبث أن مات بعد قليل.

ثم نُمى إلى رسول الله ﷺ أن خالد بن سفيان الهذلى يجمع الرجال ليغير على المدينة؛ فبعث إليه من أصحابه عبد الله ابن أُنَيس، فذهب إليه متنكرًا فى مظهر رجل يريد أن ينضم إليه فى حرب محمد؛ حتى إذا استيقن أنه يجمع لرسول الله، جعل يستدرجه حتى ظفر بغرة منه، فقتله...

شهداء الرجيع

وعز على هذيل أن يقتلَ شيخُها غِيلة، فجعلت تحتال لتأخذ له بثأره؛ فذهب إلى رسول الله ﷺ رجال من قبائل «عَضَل والقَارَة»[2] فزعموا له أن قومهم يرغبون فى الإسلام، وأنهم يريدون أن يرسل معهم رجالا من أصحابه يعلمونهم الدين ويقرئونهم القرآن.. فأرسل النبى معهم نفرًا من خيرة

(١) نغر الجرح: انتكس وعاد إلى ما كان عليه من وجع وألم.

(٢) عضل والقارة: قبيلتان.

أصحابه، على رأسهم عاصم بن ثابت. فلما كانوا عند ماء من مياه هُذَيل يقال له « الرجيع »، غدروا بهم فاستصرخوا[1] عليهم هذيلا، فلم يَرُع القومَ وهم فى رحالهم إلا رجال هذيل قد غَشوهم فى نحو مائتى رام؛ فلجأوا إلى جبل هناك فاعتصموا به، ثم جعلوا يقاتلون حتى قتلوا، إلا ثلاثة منهم خُدعوا بحيلة القوم فاستأسروا لهم : هم خُبَيْب بن عدى، وزيد بن الدُّثُنَّة، وعبد الله بن طارق. فأما عبد الله بن طارق فقد رأى مظاهر الغدر فى أعين القوم منذ نزلوا إليهم، فأفلت يدَه من القران[2] ثم أخذ سيفه واستأخر عن القوم، فرموه بالحجارة حتى قتل. وأما صاحباه فقد خرجوا بهما إلى مكة فباعوهما لقريش؛ فاشترى خبيبًا عُقْبة بن الحارث، ليقتله بأبيه الحارث بن عامر، واشترى زيدًا صفوان بن أمية، ليقتله بأبيه أُمَيّة بن خلف.

مصرع الشهيدين خبيب بن عدى وزيد بن الدثنة

وكان مقتل هذين الصاحبين حدثًا عظيمًا ارتجت له مكة، وتزلزلت به نفوس كثير من رجالات قريش؛ فقد روى أن كليهما حبس فى بيت من بيوت مكة، حتى تنتهى الأشهر الحرم فيقتل.

---

(١) استصرخوا : استعانوهم عليهم.

(٢) القران : الحبل الذى كتف به.

فلما انتهت الأشهر الحرم خرجوا بكل منهما إلى «التنعيم»[1] ليقتلوه، وخرج معهما جمع من الرجال والنساء والصبيان ليشهدوا مقتل الرجلين. فأما زيد فقد قتله عبدٌ لصفوان بن أمية يقال له نسْطاس؛ فلما قُدِّم ليقتل قال له أبو سفيان: «أنْشُدُك الله يا زيد، أتحب أن محمدًا عندنا الآن فى مكانك تضرب عنقه، وأنك فى أهلك»؟ قال زيد: «والله ما أحب أن محمدًا الآن فى مكانه الذى هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه، وأنى جالس فى أهلى».. يقول أبو سفيان: «ما رأيت من الناس أحدًا يحب أحدًا، كحب أصحاب محمد محمدًا»!

وأما خبيب فقد قال لهم حين أجمعوا قتله: «إن رأيتم أن تدعونى حتى أركع ركعتين فافعلوا». قالوا: "دُونَك فاركع".. فركع ركعتين أتمهما وأحسنهما، ثم أقبل على القوم فقال: «أما والله لولا أن تظنوا أنى إنما طولت جزعًا من القتل لاستكثرت من الصلاة»! ثم تقدم إليهم فرفعوه على خشبة أقاموها ليصلبوه، فلما أوثقوه عليها رفع وجهه إلى السماء وقال: «اللهم إنا قد بلغنا رسالة رسولك، فبلِّغْه الغَداةَ ما يُصنع بنا».. ! ثم نظر إلى القوم وقال: «اللهم أحصِهِم عددًا، واقتلهم بَدَدًا،

---

(١) التنعيم: موضع على نحو أربعة أميال من مكة، يقع على حدود الحرم من ناحية الشمال.

ولا تغادر منهم أحدًا».. ! فمال القوم على جنوبهم مخافة أن تأخذهم دعوتُه. ويقول الواقدى: إنهم جمعوا له أبناء الذين قتلهم فى بدر وسلطوهم عليه، فظلوا يَخزونه[1] بالحراب حتى قتل، رضى الله عنه.

وروى ابن إسحاق أن عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، كان قد استعمل سعيد بن عامر الجمحى على بعض الشام، فكانت تصيبه غَشْية وهو بين ظَهْرَى القوم، فذكر ذلك لعمر ابن الخطاب وقيل: إن الرجل مصاب. فسأله عمر فى قَدْمة قَدمها عليه، فقال: «يا سعيد، ما هذا الذى يصيبك؟» فقال: «والله يا أمير المؤمنين ما بى من بأس! ولكنى كنت فيمن حضر خبيبَ بن عدى حين قتل وسمعت دعوته، فوالله ما خطرتْ على قلبى وأنا فى مجلس قط إلا غُشى علىَّ!».

كان مقتل هذين الشهيدين فى صفر من السنة الرابعة للهجرة. أما مقتل أصحابهم فى الرجيع فقد ذكر ابن إسحاق أنه كان فى شوال من السنة الثالثة، وذلك حين لم تكن قد جفت بعدُ دماء الشهداء فى أحد؛ فكان ألم رسول الله ﷺ لمقتلهم عظيمًا، لأنهم كانوا من خير القراء من أصحابه، ولما كان فى مقتلهم من ضروب الخيانة والغدر والمُثْلة.

(١) يخزونه: يطعنونه طعنًا هينًا.

شهداء بئر معونة

ولم تكد نفس رسول الله ﷺ ونفوس أصحابه تهدأ قليلا من ألم هذا الحادث حتى أصابهم حادث أشد وأنكى، فى صورة أخرى من صور الغدر الآثم.. ذلك أنه قدم على رسول الله شيخ من شيوخ بنى عامر يدعى «أبا براء»، ويلقب بملاعب الأسنة؛ فعرض رسول الله ﷺ عليه الإسلام، فلم يُسلم ولم يَبْعُد من الإسلام، وقال: «يا محمد، لو بعثت رجالا من أصحابك إلى أهل نجد فدعوتهم إلى أمرك، رجوتُ أن يستجيبوا لك». فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «إنى أخشى عليهم أهل نجد». قال أبو براء: «أنا لهم جار[1]»، فابعثهم فليدعوا الناس إلى أمرك».

فبعث رسول الله ﷺ المنذر بن عمرو فى أربعين[2] من أصحابه من خيار المسلمين، فساروا حتى نزلوا «بئر مَعُونة» - وهى أرض بين أرض بنى عامر وحَرَّة بنى سُلَيم - فلما نزلوها بعثوا حرَام بن ملحان بكتاب رسول الله إلى عامر بن الطفيل - وهو شيخ بنى عامر - فلما أتاه لم ينظر فى كتابه حتى عدا على

---

(١) جار: حام ومجير.

(٢) هذه رواية ابن إسحاق.

الرجل فقتله، واستصرخ عليهم بنى عامر، فأبوا أن يخفروا جوار أبى براء[1]، فاستصرخ عليهم قبائل من سليم، فخرجوا حتى غَشُوا القوم فأحاطوا بهم فى رحالهم. فلما رأوهم، أخذوا سيوفهم ثم قاتلوهم حتى قتلوا من عندِ آخرهم، يرحمهم الله، إلا كعبَ بن زيد فإنهم تركوه وبه رمق.

وكان فى سَرْح[2] القوم عمرو بن أمية الضَّمرى ورجل من الأنصار؛ فلما أبصرا الطير تحوم حول المعسكر، أقبلا ينظران ما شأن هذه الطير، فإذا القوم فى دمائهم؛ وإذا الخيل التى أصابتهم لا تزال واقفة.. فأما الأنصارى فقد أبى إلا أن يقاتل القوم حتى قتل؛ وأما عمرو بن أمية فأخذ أسيرًا. فلما أخبرهم أنه من مُضر أطلقوه، فخرج مقبلا على المدينة؛ حتى إذا كان «بقَرْقَرَة الكُدْر»[3] نزل منزلا ليستريح، ونزل معه رجلان من بنى عامر - وكان معهما عَقْد من رسول الله ﷺ وجِوارٌ لم يعلم به عمرو - فلما عرف أنهما من بنى عامر أمهلهما حتى ناما فقتلهما، وهو يرى أنه قد أصاب بهما ثؤرةً من بنى عامر فيما أصابوا من أصحاب رسول الله، صلى الله عليه وسلم. ثم

(١) خفره وأخفره: نقض عهده. وهو هنا بمعنى الاعتداء على حق من تصدى لحماية غيره.

(٢) سرح القوم: ركابهم وأنعامهم.

(٣) ماء لبنى سليم على نحو ثمانية بُرُد من المدينة (٩٦ ميلا)

قدم على رسول الله فأخبره الخبر؛ فقال صلى الله عليه وسلم: «لقد قتلتَ قتيلين لأَدِيَنَّهما»! وحزن سول الله على أصحابه أشد الحزن وقال: «هذا عمل أبى براء»!

ومكث صلى الله عليه وسلم نحو شهر يدعو على قَتَلة أصحابه فى بئر معونة وفى الرجيع كلما صلى، حتى أنزل الله عليه قوله سبحانه: ﴿لَيسَ لَكَ من الأَمْرِ شيءٌ أَوْ يتوبَ عَلَيهم أو يعذِّبهم فإنَّهم ظَالِمُون»[1]؛ فسكنت نفسه، وانقشع عنه حزنه، وأصبح بعد ذلك لا يحقد على هؤلاء الذين دبروا لاغتيال أصحابه.

* * *

وهكذا تركت غزوة أحد آثارًا بعيدة المدى فى موقف المسلمين من أعدائهم وموقف أعدائهم منهم، فكانت كزلزلة عظيمة هزت كيانهم هزًّا عنيفًا، فظلوا يعانون من آثارها ما يعانى المتزلزل المضطرب؛ يحاول أن يتماسك ويستقر فلا يكاد يقدر.. لقد ظل المسلمون بعد هذه الغزوة زمنًا طويلا والجو من حولهم ينضح بالانتقاض لهم والغدر بهم والثورة عليهم، والأعداء من اليهود والمنافقين فى المدينة، ومن الأعراب فى

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٢٨.

البادية، ومن المشركين فى مـكة، يتحيَّنـون فيهـم الفـرص، ويتربصون بهم الدوائر؛ والمسلمون بين هـؤلاء وهـؤلاء فى حـذر وخوف، والرسول، صلى الله عليه وسلم، دائم اليقظة والـترقب، لا يكاد يحس بطائفة تجمع له وتؤلب عليـه، إلا بـادرها بـوقيعة قبل أن يجتمع أمرها، ويتفاقم خـطرها؛ فـكان كرُبـان السـفينة الماهر أحاطت به الأمواج واضطرب البحـر، فهـو يحـاول بـكل ما أوتى من مهارة وحذق أن يجنب سـفينته الهـلاك، وأن يصـل بها وبمن فيها إلى البر سالمة.